

التحرير والتنوير

(واﻟﻔﻀﻞ ﺑﻌﻀﻜﻢ ﻋﻠﻰ ﺑﻌﻀﻲ ﺍﻟﺮﺯﻕ ﻓﻤﺎ ﺍﻟﺬﯨﻦ ﻓﻀﻠﻮﺍ ﺑﺮﺍﺩﻯ ﺭﺯﻗﻬﻢ ﻋﻠﻰ ﻣﺎ ﻣﻠﻜﺖ ﺃﻳﻤﺎﻧﻬﻢ ﻓﻬﻢ ﻓﯿﻪ ﺳﻮﺍﺀ ﺃﻓﺒﻨﻌﻤﻪ ﺍﻟﻔﻴﺠﺪﻭﻥ [71]) ﻫﺬﺍ ﻣﻦ ﺍﻟﺴﺘﺪﻻﻝ ﻋﻠﻰ ﺃﻥ ﺍﻟﺘﺼﺮﻑ ﺍﻟﻘﺎﻫﺮ ﻟﻪ ﺗﻌﺎﻟﻰ . ﻭﺫﻟﻚ ﺃﻧﻪ ﺃﻋﻘﺐ ﺍﻟﺴﺘﺪﻻﻝ ﺑﺎﻟﺤﻴﺎﺀ ﻭﺍﻻﻣﺎﻧﻪ ﻭﻣﺎ ﺑﯿﻨﻬﻤﺎ ﻣﻦ ﻫﺮﻡ ﺑﺎﻟﺴﺘﺪﻻﻝ ﺑﺎﻟﺮﺯﻕ . ﻭﻟﻤﺎ ﻛﺎﻥ ﺍﻟﺮﺯﻕ ﺣﺎﺼﻼ ﻟﻠﻚ ﻣﻮﺟﻮﺩ ﺑﻨﻲ ﺍﻟﺴﺘﺪﻻﻝ ﻋﻠﻰ ﺍﻟﺘﻔﺎﻭﺕ ﻓﯿﻪ ﺑﺨﻼﻕ ﺍﻟﺴﺘﺪﻻﻝ ﺑﻘﻮﻟﻪ ﺗﻌﺎﻟﻰ (ﻭﺍﻟﻔﻼﻙ ﺧﻠﻘﻜﻢ ﺛﻢ ﻳﺘﻮﻓﺎﻛﻢ) .

ﻭﻭﺟﻪ ﺍﻟﺴﺘﺪﻻﻝ ﺑﻪ ﻋﻠﻰ ﺍﻟﺘﺼﺮﻑ ﺍﻟﻘﺎﻫﺮ ﺃﻥ ﺍﻟﺮﺯﻕ ﺣﺎﺼﻞ ﻟﺠﻤﯿﻊ ﺍﻟﺨﻠﻖ ﻭﺃﻥ ﺗﻔﺎﻭﻝ ﺍﻟﻨﺎﺱ ﻓﯿﻪ ﻏﯿﺮ ﺟﺎﺭ ﻋﻠﻰ ﺭﻏﺒﺎﺗﻬﻢ ﻭﻻ ﻋﻠﻰ ﺍﺳﺘﺤﻘﺎﻗﻬﻢ ؛ ﻓﻘﺪ ﺗﺠﺪ ﺃﻛﯿﺲ ﺍﻟﻨﺎﺱ ﻭﺃﺟﻮﺩﻫﻢ ﻋﻘﻼ ﻭﻓﻬﻤﺎ ﻣﻘﺘﺮﺍ ﻋﻠﯿﻪ ﻓﻲ ﺍﻟﺮﺯﻕ ﻭﺑﻀﺪﻩ ﺗﺮﻯ ﺃﺟﻪﻝ ﺍﻟﻨﺎﺱ ﻭﺃﻗﻠﻬﻢ ﺗﺪﺑﯿﺮﺍ ﻣﻮﺳﻌﺎ ﻋﻠﯿﻪ ﻓﻲ ﺍﻟﺮﺯﻕ ﻭﻛﻼ ﺍﻟﺮﺟﻠﯿﻦ ﻗﺪ ﺣﺼﻞ ﺑﻪ ﻣﺎ ﺣﺼﻞ ﻗﻬﺮﺍ ﻋﻠﯿﻪ ﻓﺎﻟﻤﻘﺘﺮ ﻋﻠﯿﻪ ﻻ ﻳﺪﺭﻯ ﺃﺳﺒﺎﺏ ﺍﻟﺘﻘﺘﯿﺮ ﻭﺍﻟﻤﻮﺳﻊ ﻋﻠﯿﻪ ﻻ ﻳﺪﺭﻯ ﺃﺳﺒﺎﺏ ﺗﯿﺴﯿﺮ ﺭﺯﻗﻪ . ﻭﺫﻟﻚ ﻟﺄﻥ ﺍﻟﺄﺳﺒﺎﺏ ﻛﺜﯿﺮﻩ ﻣﺘﻮﺍﻟﺪﻩ ﻭﻣﺘﺴﻠﺴﻠﻪ ﻭﻣﺘﻮﻏﻠﻪ ﻓﻲ ﺍﻟﺨﻔﺎﺀ ﺣﺘﻰ ﻳﻄﻦ ﺃﻥ ﺃﺳﺒﺎﺏ ﺍﻟﺄﻣﺮﯨﻦ ﻣﻔﻘﻮﺩﻩ ﻭﻣﺎ ﻫﻲ ﺑﻤﻔﻘﻮﺩﻩ ﻭﻟﻜﻨﻬﺎ ﻏﯿﺮ ﻣﺤﺎﻁ ﺑﻬﺎ . ﻭﻣﻤﺎ ﻳﻨﺴﺐ ﺇﻟﻰ ﺍﻟﺸﺎﻓﻌﻲ : . ﻭﻣﻦ ﺍﻟﺪﻟﯿﻞ ﻋﻠﻰ ﺍﻟﻘﻀﺎﺀ ﻭﻛﻮﻧﻪ ... ﺑﻮﺱ ﺍﻟﻠﯿﺐ ﻭﻃﯿﺐ ﻋﯿﺶ ﺍﻟﺤﻘﻖ E A ﻭﻟﺫﻟﻚ ﺃﺳﻨﺪ ﺍﻟﺘﻔﻀﯿﻞ ﻓﻲ ﺍﻟﺮﺯﻕ ﺇﻟﻰ ﺍﻟﻪ ﺗﻌﺎﻟﻰ ﻟﺄﻥ ﺃﺳﺒﺎﺑﻪ ﺧﺎﺭﺟﻪ ﻋﻦ ﺇﺣﺎﻁﻪ ﻋﻘﻮﻝ ﺍﻟﺒﺸﺮ ﻭﺍﻟﺤﻜﯿﻢ ﻻ ﻳﺴﺘﻔﺰﻩ ﺫﻟﻚ ﺑﻌﻜﺲ ﻗﻮﻝ ﺍﺑﻦ ﺭﺍﻭﻧﺪﻯ : .

ﻛﻢ ﻋﺎﻗﻞ ﻋﺎﻗﻞ ﺃﻋﯿﺖ ﻣﺬﺍﻫﺒﻪ ... ﻭﺟﺎﻫﻞ ﺟﺎﻫﻞ ﺗﻠﻘﺎﻩ ﻣﺮﺯﻭﻗﺎ ﻫﺬﺍ ﺍﻟﺬﻯ ﺗﺮﻙ ﺍﻟﺄﻭﻫﺎﻡ ﺣﺎﺋﺮﻩ ﻭﺻﯿﺮ ﺍﻟﻌﺎﻟﻢ ﺍﻟﻨﺤﺮﯨﺮ ﺯﻧﺪﯨﻘﺎ ﻭﻫﺬﺍ ﺍﻟﺤﻜﻢ ﺩﻝ ﻋﻠﻰ ﺿﻌﻒ ﻗﺎﺋﻠﻪ ﻓﻲ ﺣﻘﯿﻘﻪ ﺍﻟﻌﻠﻢ ﻓﻜﯿﻒ ﺑﺎﻟﺘﺤﺮﯨﺮﯨﻪ ﻭﺗﻔﯿﺪ ﻭﺭﺍﺀ ﺍﻟﺴﺘﺪﻻﻝ ﻣﻌﻨﻰ ﺍﻟﺌﻤﻨﺎﻥ ﻻﻗﺘﻀﺎﺋﻬﺎ ﺣﺼﻮﻝ ﺍﻟﺮﺯﻕ ﻟﻠﺠﻤﯿﻊ . ﻓﺠﻤﻠﻪ (ﻭﺍﻟﻔﻀﻞ ﺑﻌﻀﻜﻢ ﻋﻠﻰ ﺑﻌﻀﻲ ﺍﻟﺮﺯﻕ) ﻣﻘﺪﻣﻪ ﻟﻠﺪﻟﯿﻞ ﻭﻣﻨﻪ ﻣﻦ ﺍﻟﻤﻤﻦ ﻟﺄﻥ ﺍﻟﺘﻔﻀﯿﻞ ﻓﻲ ﺍﻟﺮﺯﻕ ﻳﻘﺘﻀﻲ ﺍﻟﺌﻨﻌﺎﻡ ﺑﺄﺼﻞ ﺍﻟﺮﺯﻕ . ﻭﻟﯿﺴﺖ ﺍﻟﺠﻤﻠﻪ ﻣﻨﺎﻁ ﺍﻟﺴﺘﺪﻻﻝ . ﺇﻧﻤﺎ ﺍﻟﺴﺘﺪﻻﻝ ﻓﻲ ﺍﻟﺌﻤﺌﯿﻞ ﻣﻦ ﻗﻮﻟﻪ ﺗﻌﺎﻟﻰ (ﻓﻤﺎ ﺍﻟﺬﯨﻦ ﻓﻀﻠﻮﺍ ﺑﺮﺍﺩﻯ ﺭﺯﻗﻬﻢ) ﺍﻻﻳﻪ .

ﻭﺍﻟﻘﻮﻝ ﻓﻲ ﺟﻌﻞ ﺍﻟﻤﺴﻨﺪ ﺇﻟﯿﻪ ﺍﺳﻢ ﺍﻟﺠﻼﻟﻪ ﻭﺑﻨﺎﺀ ﺍﻟﻤﺴﻨﺪ ﺍﻟﻔﻌﻠﻲ ﻋﻠﯿﻪ ﻛﺎﻟﻘﻮﻝ ﻓﻲ ﻗﻮﻟﻪ ﺗﻌﺎﻟﻰ (ﻭﺍﻟﻔﻼﻙ ﺧﻠﻘﻜﻢ ﺛﻢ ﻳﺘﻮﻓﺎﻛﻢ) . ﻭﺍﻟﻤﻌﻨﻰ : ﺍﻟﻪ ﻻ ﻏﯿﺮﻩ ﺭﺯﻗﻜﻢ ﺟﻤﯿﻌﺎ ﻭﻓﻀﻞ ﺑﻌﻀﻜﻢ ﻋﻠﻰ ﺑﻌﻀﻲ ﻓﻲ ﺍﻟﺮﺯﻕ ﻭﻻ ﻳﺴﻌﻜﻢ ﺇﻻ ﺍﻟﺌﻘﺮﺍﺭ ﺑﺫﻟﻚ ﻟﻪ . ﻭﻗﺪ ﺗﻢ ﺍﻟﺴﺘﺪﻻﻝ ﻋﻨﺪ ﻗﻮﻟﻪ ﺗﻌﺎﻟﻰ (ﻭﺍﻟﻔﻀﻞ ﺑﻌﻀﻜﻢ ﻋﻠﻰ ﺑﻌﻀﻲ ﺍﻟﺮﺯﻕ) ﺑﻄﺮﯨﻘﻪ ﺍﻟﺌﯿﺠﺎﺯ ﻛﻤﺎ ﻗﯿﻞ : ﻟﻤﺤﻪ ﺩﺍﻟﻪ .

ﻭﻓﺮﻉ ﻋﻠﻰ ﻫﺬﻩ ﺍﻟﺠﻤﻠﻪ ﺗﻔﺮﯨﻊ ﺑﺎﻟﻔﺎﺀ ﻋﻠﻰ ﻭﺟﻪ ﺍﻟﺌﺪﻣﺎﺝ ﻗﻮﻟﻪ ﺗﻌﺎﻟﻰ (ﻓﻤﺎ ﺍﻟﺬﯨﻦ ﻓﻀﻠﻮﺍ ﺑﺮﺍﺩﻯ

رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء) . وهو إدماج جاء على وجه التمثيل لتبيان ضلال أهل الشرك حين سواوا بعض المخلوقات بالخالق فأشركوها في الإلهية فسادا في تفكيرهم . وذلك مثل ما كانوا يقولون في تلبية الحج (لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك) . فمثل بطلان عقيدة الإشراك بـ بعض مخلوقاته بحالة أهل النعمة المرزوقين لأنهم لا يرضون أن يشركوا عبيدهم معهم في فضل رزقهم فكيف يسوون بـ عبيده في صفته العظمى وهي الإلهية . ورشاقة هذا الاستدلال أن الحالتين المشبهتين والمشبّه بهما حالتا مولى وعبد كما قال تعالى (ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم) .

والغرض من التمثيل تشنيع مقالتهم واستحالة صدقها بحسب العرف ثم زيادة التشنيع بأنهم رضوا بـ ما يرضونه لأنفسهم كقوله تعالى (ويجعلون البنات سبحانه ولهم ما يشتهون) إلى قوله (والمثل الأعلى) .

وقرينة التمثيل والمقصد منه دلالة المقام .

وقوله تعالى (فما الذين فضلوا) نفي . و (ما) نافية . والباء في (برادى رزقهم) الباء التي تزداد في خبر النفي بـ (ما) و (ليس) .

والراد : المعطي . كما في قول النبي A والخمس مردود عليكم أي فما هم بمعطين رزقهم لعبيدهم إعطاء مشاطرة بحيث يسوونهم بهم أي فما ذلك بواقع .

وإسناد الملك إلى اليمين مجاز عقلي لأن اليمين سبب وهمي للملك لأن سبب الملك إما أسر وهو أثر للقتال بالسيف الذي تمسكه اليد اليمنى وإما شراء ودفع الثمن يكون باليد اليمنى عرفا فهي سبب وهمي ناشئ عن العادة